

## الأستاذ نقولا يوسف

كنت أدخل مكتب صديقى الأستاذ الكبير نقولا يوسف ناظر المدرسة الثانوية فلا يخذعنى مظهره الأنيق، ودبلوماسيته الحاذقة، وابتسامته الشفافة عن حقيقة ما أعرفه عنه، فهو فقير هندی، ترك كوخه على شاطئ الكنج ليقیم خطأً بشارع سليمان محمود بالإسكندرية فى قمة بيت هندسى أقيم على النمط الرومانى، وانفجرت شرفاته الواسعة لتستقبل نسائم البحر المتوسط محملة بعبير الورد المزهى فى حدائق المنازل المجاورة! وليرى الناظر منها رؤوس الأشجار تتمايل فى الصباح، وتُريبات الكهرباء تتألق فى المساء محاولة أن تمتد بشعاعها إلى الأوج، حيث يجلس صديقى مجلسه الهادىء ليسامر النجوم!

فإذا تركت المنزل لرؤية صديقى فى كازينو كليوباتره على شاطئ البحر حيث اعتاد أن يجلس أصيلاً فى بهوه المنبسط على صفحات الماء يتسمع من جدران البلورية حديث الموج الثائر ويتلقى الرشاش المتناثر على الزجاج مرسلأً بصره إلى الأفق الأزرق حين يتواضع فيهبط إلى الماء فى عناق مؤثر خفاق! إذا رأيت صديقى فى مجلسه الفنان يدخن لفافته أو يكتب صحيفته فإن جلسته الشاعرة لاتخذعنى عن حقيقة هذا الناسك الهندى الذى يأخذ مظهر (الجتلمان) الحديث!

إن الإحساس بتناسق الوجود هو الذى يجعل ناسك الهند يعشق الطير والهواء والنبات والصخر، حتى ليخال الوجود بأجزائه المختلفة لحناً موسيقياً مؤتلف النغمات وحتى ليتخيل البحر والصخر والطير والحيوان أناساً تتألف وتتعارف!

قال صديقى الأستاذ عبد العزيز جادو الباحث النفسى المعروف: كيف تجعل الأستاذ نقولا يوسف ناسكاً هندياً، وهو الذى أرهق نفسه بالبحث العلمى، فدرس

نظرية التطور، وبنى على أساسها مذهبه الإصلاحى كما رسمه فى كتابه (الحياة الجديدة)، حين أخذ يبحث عن مدينة المستقبل كما يتصورها بخياله المتأمل، ويغوص فى حقائق علم النفس ليوضح أنماط السلوك الإنسانى، ثم يحلم بمدينة فاضلة كتلك التى حلم بها أفلاطون والفارابى وولز! ولم ينس أن يجوب الدنيا ليتحدث عن حركات الإصلاح فى تركيا، وعن مساوىء ازدحام السكان! أفيكون الناسك الهندى هو صاحب العقل المفتوح لحقائق العلوم، الهاضم لشتى الفلسفات المعاصرة، المبشر بمستقبل متفائل للإنسانية! أم يكون الشيخ الانعزالى الذى يخدر شعوره ليكون إشعاعاً فى ضوء، أو قطرة فى نهر، أو شذى فى زهرة، أو هباءة فى فضاء!؟

قلت: يا صديقى، لقد خدعك القشر عن اللباب؛ فإن مباحث الحياة الجديدة تتوهج بأضواء التنسك فى كل سطر يخطه المؤلف، ولئن بدا ما يشبه التناقض بين جدية القائل بنظرية التطور والهائم فى فضاء الله مع أنسامه وذراته، فإن المحلل النفسى يزيح الأغطية الكثيفة عن الحقيقة الخالدة التى تجعل من نقولا طيراً يرفرف بأحاسيسه النابضة بحق الكون، الهاتفة بالتسامح والإغضاء، الراحمة ذوى الطباع الغلّف من قساة البشرية الباذلة همساتها الحانية لكل عابر سبيل مهما لقيت من الإيذاء الغادر، وعانت من جنف الصاحب ولؤم العشير!

لقد أخذ الناسك على عاتقه أن يؤلف بين من يعرف من الأدباء فيجمعهم على فترات متعاقبة فى صومعته الناهضة فى أعلى المنزل كما ينهض الوكر فى أعالي الشجر ملتمساً شتى المناسبات ليسقيهم الود، ويناقشهم الرأى، وليمدّ يد المعونة الأدبية والعلمية لمن يحتاج!

ولكن الثعابين الرقش تتسلل إلى الوكر الهادى لتثير الذعر فى العش الوداع فتحوك الأراجيف وتثير الأقاويل، وصاحب العش يتسم فى إشفاق ويقول قوله الهندى الناسك: هكذا الدنيا، يجب أن نستقبل فيها الشر كما نستقبل الخير، فلا حذر ولا ملام!

ويُفد إلى الشجر كَبِيرٍ من أدباء القاهرة ينزل من نقولا منزلة الصديق، فيرى الناسك من واجبه الأدبي أن يعقد أواصر المودة بينه وبين معارفه، فيبذل الجهد في تأثيل الود، وتقوية الوشائج، وبدل أن يجد الشكر الخالص من بعض النكرات التي جعلها معارف في محفله، فإنه يُفاجأ بأقسى ضروب النكران! إذ هو المسئول الأول عن المصير الأدبي لهذه الإمعات، فعليه أن يهيم لها سبيل الظهور لدى عارفيه من كبار الأدباء، ولا عليه إذا كان هذا الإمعة المتطفل فارغ القلب والعقل فذلك شيء، وإرضاء النزوات شيء آخر يجب أن يحسب له ألف حساب! ويشهد الناسك الحالم سحب الجفاء تراكم مظلمة أمامه، فيقول في ابتسامه: هكذا الدنيا، ماذا كنت أنتظر!؟

ويهبط عليه في مجلسه الوداع دَعِيٌّ من أدعياء الفن ليسمعه قصة طويلة مملّة جاد بها يراعه الكليل، فيتصبر الناسك ويتجلد وهو يسمع عشرات الصفحات الفارغة تنهال على سمعه بدون أن يقطعها ثناؤه اللا إرادى، مستعيناً على الصبر بشتى ضروب الاحتمال من قهوة ودخان، حتى إذا انقضت الحقة المريرة اضطر الناسك إلى كلمات التشجيع مندفعاً في حنو عاطف إلى تلمس المحاسن، ومتحاشياً أن يمسّ كرامة الفنان الجديد ببعض ما يجب من النقد، ثم تنتهى الجلسة ويذهب الناسك إلى وكره الهادىء فيسمع طرقات خفيفة على الباب فما ينهض للقاء الطارق حتى يجد الفنان الدّعِيَّ يخبره أن المحفظة قد سقطت منه، وأنه مضطر إلى اقتراض بعض المال، فيمد الناسك يده إلى جيبه ليقدم أكثر مابه، فإذا قلت له: هذا احتيال مفضوح، أجابك فى ابتسام وديع: هكذا الدنيا، ماذا كنت أنتظر!؟

وتنتشر مقالات الناسك فى شتى الصحف والمجلات العربية فيخف إليه من يرجون وساطته لدى رؤساء التحرير، فيسارع ببطاقته الرقيقة ليخط عليها ما يرضى الطالب الملحاح، ثم يتأخر النشر لبعض الأسباب، فإذا الثورة المكبوتة تتحول إلى قطيعة، ثم إلى همس راجف بتقصير الشفيع! إذ لو أخلص النية لجعل البطاقة الموجزة رسالة مبسوطة، وتأتى الأنباء إليه فيبتسم ويقول: هكذا الدنيا، ماذا أصنع!؟

ثم يغرق نفسه فى مراسلة الأوفياء من الأصدقاء ليجد فى صمت الغريب عزاءً عن لغو القريب فيجمع الظروف والأوراق ليكتب رسائل تتجاوز أصابع اليدين عدا فى مجلس واحد، وقد اجتمع لديه مما كتب وتلقى مئات من الوثائق الأدبية النادرة، بادرَ إلى نشر بعضها بمجلة «الأدب المصرية»، وما زال أكثرها يملأ ثلاثة أدراج من مكتبه، وإن أحاسيس الوفاء لترسم فى ملامحه الناطقة حين يتصفح هذه الرسائل بين الفينة والفينة ليشم منها عبير الشوق، وليتسمع نبضات الوفاء فى دقات فؤاده تسمعاً يعرفه الأوفياء! وإنهم لقليلون!

على أن هذا الوفاء يلقى عليه من الأعباء ما تنوء به الكواهل الشداد! فإذا علم أن أستاذه «عبد الرحمن شكرى» مثلاً يشكو الشلل فى مرضه الأخير بادر إلى الترفيه عنه، فسعى إلى إصدار عدد خاص من مجلة «العالم العربى» يتحدث عن الشاعر الكبير، وملاً أكثر الصفحات بما يعنّ له من الخواطر والآراء، فإذا بلغ الكتاب أجله وانتقل الشاعر إلى رحمة الله رأى الناسك الوفى أن يعمل على نشر ديوانه، فبذل الجهد فى جمع المخطوطات وتهيئة الديوان الضخم للنشر ولا يزال يبحث حتى يجد بعض الأثرياء من تلاميذ الشاعر يتطوعون بنفقات الطبع، فتزغرد الفرحة فى قلبه ويسعى إلى تهيئة الديوان طبعاً ونشراً وتصحيحاً حتى يخرج إلى الوجود فتلقفه وزارات الثقافة والتربية والتعليم العالى، ويكسب الثرى من ثمنه ضعف ما قدم بدون أن يذكر المحقق الجامع والمصحح الساهر بشيء، وتأتى الأنباء إلى الناسك فيتسم ويقول: هكذا الدنيا! ماذا كنت أصنع!؟

ويموت «صديق شيبوب» فىرى نقولا نفسه مكلفاً من تلقاء ضميره بجمع مقالاته التى كتبها بالبصير فى مدة تبلغ الأربعين من الأعوام، فيسعى إلى منزل الراحل، ويشير على الأخت الكبيرة أن تحرص على مالديها من الآثار، لينسق منها مجموعات أدبية!

ثم تأتبه الأنباء بأن «خليل شيبوب» شقيق الشاعر قد ترك ديواناً شعرياً تقدم به صديق إلى مجلس الفنون فيواصل المسعى ليحيى آثار الشاعر كما نهض لإحياء آثار

الكاتب، ثم يعلم أن بعض الناشرين تسلل إلى مكتبة «صديق» وتسلم مخطوطاته لينشرها، فينتظر الأيام لينعم بإحياء ذكرى تراث صديقه، ولكنه لا يجد ما يقنع، وتسأله عن ذلك فيقول: بذلت جهدى، فلم أوفق، فماذا أصنع؟!

ويختفى صديقه «محمد أمين حسونة» فجأة، فيضرب الناسك فى حيرة دامية، ويتساءل عنه فى كل مكان ينتظر منه الجواب، ولا يزال يسأل حتى يعلم أن طائفة سيئة الحظ قد احترقت بركابها ومن بينهم صديقه الأديب، فيسكب عليه عبرات الوفاء، ويكتب عنه فى «العالم العربى»، و «الأديب» ثم يخف إلى زيارة أهله فى ميت غمر متسائلا عن تراثه ومشيراً بطبعه، فإذا خلا إلى نفسه طالعتة الذكريات بأشجانها المريرة فيقول فى آهة حزينة، هكذا الدنيا! ماذا كنت أصنع؟!

وإذا كان كل ناسك هندى يؤمن بخلود الروح، فإن كاتب «المجلة الجديدة» و«السياسة» الأسبوعية»، و مترجم ولز ومحلل آرائه يشعر فى أعماقه أن هناك حاجزاً يفصل بين عقله وقلبه، فهو إذ يتحدث عن منجزات أوربا وحضارتها العلمية وآفاقها المدنية، واذ يرسم الطريق لمستقبل العالم فى ضوء الحقائق المشفوعة بالأرقام إنما يترك لعقله المجال موصلد الباب أمام هبات الروح ونسمات الوجدان، ولا أدرى لماذا أحسّ أن نقولا غريب عن عالمه وهو يخب ويضع فى طريق الثورة الإيجابية، ولكنى أشعر أنه يمثل نفسه أصدق تمثيل حين يتحدث فى مرات كثيرة عن العالمية الإنسانية فيراها المبدأ الأول للتعرف البشرى ويتصور الكوكب الأرضى يتفاهم بلغة عالمية مشتركة، وقد زالت عن العيون غشاوة التعصب الجنسى واللغوى، ثم يهجم على أبطال الحروب من أمثال تيمورلنك، ونابليون، فيحكم بأنهم سفاحون مجرمون، وأن تسجيل تواريخهم مما يعوق التقدم الإنسانى، وأولى بهم فى مجال الذكر أبطال الإنسانية من أمثال لنكولن، وغاندى، وتولستوى، ودعاة السلام، وإن الروح الهندية لتتجلى فى مثل قوله:

«لنحب الإنسانية كمظهر للحقيقة الخالدة، ولنعلم أن كل بشرى لا يخلو من فضيلة أو فكرة أو جمال، ولنعرف أن هذا الكون كله لايساوى فضيلة بشرية، أو

فكرة إنسانية، إن البشرية طفلة جميلة ساذجة تميل إلى المشاكسة، وتنزع إلى الشر، ولكن من ذا الذى ينقم على طفلة جميلة مهما بلغ شرها، إنها مقيدة بقيود الأنظمة وأغلال الجهل والألم، وليست هي المذنبه لأنها طيبة في جوهرها!»

وإذا كان الناسك الهندى قد ذهب في حياته الجديدة إلى خلود الروح، فإنه لا يتنكر لدراسته المنهجية في شىء بعد أن تبلورت في إشعاع النفس إلى قيم جديدة تمدد بالأمن الهادىء والرجاء البعيد، ولقد آمن «ه. ج ويلز» المادى بالوحدة العالمية، كما آمن «رابندرانات طاغور» الهندى، فتحدث نقولا يوسف عن المفكرين الكبيرين حديثا وامضا لا ينقصه النبض، ولكنه في حديثه عن الشاعر الهندى كان يحس بالانسجام الداخلى على نحو لم يتهيا له في حديثه عن المفكر الإنجليزى، وإن ماكتبه نقولا عن «طاغور» و «كاليداسا» و «بوذا» و «زينة النساء» ليشعرك برنين مؤثر لا تكاد تسمعه فيما كتبه عن غير هؤلاء من أمثال «ملتون» و «هوراس» و «شلى» و «أوسكار وايلد» و «جولد سميث» لأن الأدب الهندى المثالى - كما قال نقولا يوسف - من أكثر الآداب روحانية، ومن أعمقها غوراً، وأشدّها رهبة، والهنود كما وصفهم تاجور تتجلى فيهم الشاعرية والفلسفة بطبيعة نشأتهم ومذاهبهم.

لذلك كان نقولا يوسف الناسك الهندى يعيش في جوه بدون أن يدري، وهو يخط خطواته عن ذوى معشره فيما وراء الهملايا من ربوع حاملة تهيم بالوجود المطلق، وتعتقد الخلود اعتقاداً يخفف عنها ما تصطدم به في الحياة من عقبات لا تلبث أن تزول حين تتخلص الروح من قفصها الضيق إلى حيث تنطلق!

لذلك لا أدهش حين أرى الابتسامة الراضية تضىء على وجه المفكر الحالم فى أحلك ساعات الغضب، إنه يسمع أن زملاءه فى الدراسة والوظيفة قد بلغوا وكالة الوزارة، ودرجات مديرى العموم فى وثبٍ سريع، فيبادر بالتهنئة راضياً سعيداً، ثم تحيئه الأنباء أن تلاميذ تلاميذه يحتلون الصحف الأولى من جرائد اليوم مثلما كان يحتل الصحيفة الأولى من «الأهرام» وهو فى سن العشرين، كما تهيب لهم

المصادفات من يطبع هراءهم التافه فى كتب، ويذيع تمثيلاتهم الصبائية فى مسرح وإذاعة وتليفزيون فيبادر بالتهنئة الصادقة، فإذا قلت للكاتب الأصيل: أين أنت بعد جهاد خمسين عاماً أو تزيد؟ قال لك: مالى وللأضواء؟ أنا أكتب مقالى الأسبوعى منذ عشرين عاماً فى جريدة «دمياط» الإقليمية التى لا يقرؤها غير أبناء بلد واحد! وما حدثت نفسى بالانقطاع، على حين أعلم تمام العلم أنى أغنى لنفسى، ثم أنا أوصل النشر منذ أعوام طويلة فى صحيفة «الطالبة» حسبة لوجه الله، لأنى أستحى أن أتخلف عن عادة من عاداتى الثقافية . . .

ويبتسم الناسك الهندى وهو يقول: ما الفرق بين صحيفة طائرة الصيت ومجلة إقليمية محدودة النطاق، إن الحروف تُرَصُّ، والعجل يدور، والأوراق توزع، ثم تمتهن بعد ذلك فى الأغلفة وحفظ الملابس والأوعية، ولو كان للورق روح كما للإنسان لقلت: إنه يحلم بالخلود! ولكن هنيئاً له فقد عرف فى النهاية أنه سيكون هباءً، ويتحول إلى مادة مغايرة! فلا قصص إذن ولا مقالات!!

ولعل قارئى نقولاً فى مجموعاته القصصية «هم وهن» و «دنيا الناس» و «مواكب الناس» يرى الحياة الزاخرة بطوفانها الثائر يرسمها الكاتب الناسك فى هدوء متسامح عطوف، لأن شعور الرحمة لدى الهندى الزاهد لا يسمح له بالقسوة على الأشرار، بل ربما تلمس لهم العذر فى إيضاح البواعث واكتناه الدوافع، وهو مما لا حيلة فيه فى طبيعة الكاتب الرحيم! وكثيراً ما تجد بعض الأبطال يبتدىئ شريكاً ثم يسعه عفو الكاتب فيسايره فى رفق متعطف حتى ينقذه فى النهاية مما كان يتوقع قارئى مثلى له من نكبات، وأنا فى هذا العرض الطائر لأحلل أدباً، أو أفسر اتجاهها فأؤيد المؤلف أو أعارضه، ولكنى أسجل بعض انطباعاتى عمماً قرأت لصاحبى فى ميدان الأقصوصة، تاركاً البحث المنهجى لساعة أخرى قد تحين فى مجال غير مجال الذكريات!

\*\*\*

## الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين

قرأتُ للأستاذ عبد الفتاح أبو مدين قبلَ أن أسعد بمعرفته، فكنتُ أجدُه ذا حذبٍ بالغ على أدب الناشئين يُتابعهم بالتوجيه العاطف، ويُسدّد خطواتهم بالتشجيع الملح، ولكنّه مع الأديباء المرموقين مُرتفع النبرة، يعد عليهم أخطاءهم فى ثبات، فإذا اشتعلتِ المعركة تقدّم إليها واثق الخطوة، وقد أثمرتُ خطته مع الشباب الصاعد من ذوى الأقلام، فأصبحوا بمرور الزمن أصحابَ رسالة، وفيهم من ولى التدريس فى أروقة الجامعة، فلم يفهم أن يعترفوا بتوجيهه، أما الذين ضاقوا بالنقد من الكبار فقد أدركوا بعد حين إخلاصه للحقيقة الأدبية، وعرفوا أنّه سليم الصدر، صادق الاتجاه، فأثروه بالودّ، وفيهم من جمع وشدّ وأصابع اليد ليست على مقياس واحد كما يقول المثل الذائع.

تلقيتُ ذات صباح رسالةً من الأستاذ محمد عبد الحليم محمود السفير المفوض بوزارة الخارجية المصريّة، يقولُ فيها: إنه قرأ بالصحف السعودية هجومًا حادًا على والده المغفور له الأستاذ الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، وقد جاء ذلك تعليقًا على مقال لى كتبته عن الإمام الراحل، وكتبُ المقال هو الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين، ويرى النجلُ الكريم من واجبي أن أسارع إلى الردّ العاجل حفظًا لجانب الإمام الأكبر، ورعايةً للحقيقة أن تعصف بها العواصف، فقلتُ فى نفسى إنّ عبد الفتاح أبو مدين كما أعهدّه لا ينازلُ غير الكبار، فهل ظننى كاتبًا كبيرًا؟ إن كان الأمر كذلك فهنيئًا مريثًا غير داء مخامر لعزة ما استحلّت - كما يقول كثير.

ثم راسلت بعض زملائى بجامعة السّعودية كى يرسلوا لى ماكتب الأستاذ،

فأدهشنى أنه لم يكتب عنى مقالاً أو مقالين أو ثلاثة بل كتب عدة مقالات متتابعة، إذ وقع فى يده الجزء الثانى من كتابى «النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين» فأثره بالتحليل المتتبع، فتعرض لنفرٍ ممن تحدثُ عنهم، كالبشير الإبراهيمى، ومحمد الخضرى، وأحمد غلوش، ومحمد رشيد رضا، وسيد بن على المرصفى، وعبد الحليم محمود، فأبدى وجهة نظره الناقدة فيما كتبتُ، وطبيعى من كاتب سعودي ملتزم أن يعارض اتجاه الإمام الأكبر فى منحاه الصوفى، فالخلافُ فى هذه الناحية مما تأكدَ وتواصلَ لدى كُتّاب المملكة، ولكلِّ منحاه الذى يثق فى صحته، فرأيتُ أجادلَ فى أمرٍ كثرُ فيه الدفع والجذب قرابة قرن ونصف من الزمن، لأنَّ كلتا الوجهتين قد اتضحتُ، فما يأتى النقاش بجديد، ولكنى رأيت الأستاذ أبو مدين يقول فى بعض ما كتب: إنه لم يجدُ فى الأسواق غير الجزء الثانى من كتابى فحسب، وأنه بحث عن الأجزاء الأخرى فلم يهتد إليها بالقاهرة، فرأيت من حقه على أن أهدى إليه الجزء الأول مع الثالث والرابع والخامس، وتفضلَ فأهدى إلى كتابه الحافل «فى معترك الحياة».

### نظرة فاحصة:

وقع فى يدي كتاب «فى معترك الحياة» فألفيته فى حجمه الكبير سجلاً يتسع لآثار كثيرة تفرقت فى الصحف، ورأى الأستاذ أن يجمعها فى كتاب مستقل، وقد قال فى المقدمة إنه لم يكن ليحفل بجمع هذا الفصول، لاقتناعه بأنها آثار كتبت على وجه السرعة، وليس فيها ما يستحق أن يُعنى به، ولكنه رأى فى القراء من يرحب بالمقالات المتفرقة، لسهولة تحصيلها، فاختر أن يُشيع رغبة هؤلاء، ثم اعترف أنه حذف الكثير مما كتب، لأنه شىء قد مضى مع وقته! وإذن فما بقى بعد الحذف جدير بالاهتمام، وهو ما وصلتُ إليه بعد قراءة الكتاب، ولم تكن كل أبوابه غريبةً علىّ، فقد قرأت بعضها فى صحف السعودية حين كنتُ بالمملكة أستاذاً بجامعة الإمام محمد بن سعود، ولكن اجتماع هذه الأبواب فى مجلد كبير دفعنى إلى القراءة! ووجدتُ فيما قرأت أن جميع ماكتبه الأستاذ أبو مدين عن كتابى، قد احتلَّ صفحاتٍ متتابعة، ومهما اتفقتُ معه أو اختلفت، فإنَّ فى حرصه

على جمع هذه المقالات الناقدة تقديراً واحتفاءً بكتاب متواضع، قد يكون غيره أجدر منه بالاحتفاء، وأذكر أن الأستاذ قد أخذ على أن طويتُ بعض الأحداث المهمة فلم أشر إليها، وهذا حق، لأن ما طويته سبق أن تحدثت عنه في مجال آخر، كما أخذ على كثيرًا من الرفق مع الأعلام، وأنا أرى أن التعاطف الذي لاتضييعُ معه الحقائق أدنى إلى الصواب، لأن الكاتب - أصلاً - لم يكن ليترجم لغير من قام بجهد رائع يشكر عليه، لاسيما إذا كان من أعلام النهضة الإسلامية، فهل أجد من يوافقني؟

وما تحدثت عنه في صدر هذا المقال من قسوة الأستاذ عبد الفتاح على الكبار، يجدُ شواهد الدالة في صفحات الكتاب، حيثُ تعرض لمحاضرات أدبية قيلت في مؤتمر مشهود، في بلد شقيق وقام بها من رجال الفكر من تصدروا مكانة القيادة في دولهم، ولكن منهم من تساهل في إعداد محاضراته، وأتى بسطور تجتمع لتتحدث عن الخواطر العامة الذائعة بدون حرص على تقديم ما يجذب الفكر، في مؤتمر حافل أعدت برامجه، ورسمت خطواته واختير متحدثوه! وقد أشفقتُ كثيراً حين وجدتُ الكاتب الناقد بقسو على أديب مفكر هو الأستاذ محمد أديب العامري رحمه الله لأنه لم يأت بجديد، وأنا أعرفُ للعامري أصالة نادرة، فهو مثقفٌ واسع الاطلاع دقيق النظر، ومن يدري، فلعلة كتبَ الجيد، ولم يُوافق القائمون على المؤتمر على إذاعة كل ما قال، لقد حصل لي ذلك شخصياً! فماذا أصنع ويصنع العامري رحمه الله.

أما الجميلُ حقاً، فهو ما ألحّ عليه الأستاذ أبو مدين من ضرورة تكريم الرواد، رواد الأدب المعاصر في السعودية، لأن هؤلاء قد حفروا طريقهم في الصخر المتحجر، قبل أن تنتيسر الأمور في المملكة، فقاموا برسالة الأدب باذلين من جهودهم الشاقة تاليفاً وطبعاً ونشراً ما لاتسمح به ضرورياتهم الملزمة، والفرقُ بعيدٌ جداً بين ما يجده شباب اليوم من وسائل النشر، وطرق التشجيع المختلفة، وبين ما قام به رائدٌ من هؤلاء كان يجمعُ حروف المطبعة بنفسه، ويديرُ العجلات بيده، ثم يرسلُ المجلة إلى القارئ الكبير في منصبه فيجد الصدود! إن اهتمام أبو مدين

بتكريم هؤلاء، والإلحاح في ذلك حتى استجاب أولو الأمر إلى دعوته، مما يُحسب له في مآثره الأدبية، وهي كثيرة كثيرة كما أرى.

### دعوتى للمحاضرة:

يقوم الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين على رئاسة النادي الأدبي بجدة، وهو يبذل جهده الكبير في أداء رسالته الأدبية على أكمل وجه يراه، وللنادي إصداراته العلمية الدائمة في مختلف فروع المعرفة كما له محاضراته الأسبوعية التي يفدُ لإلقائها جماعةً من ذوى الدراية في ربوع العالم العربي جميعه، وقد تفضلَ مشكوراً فدعاني إلى إلقاء محاضرة أدبية بالنادي، ترك لي تحديد موضوعها، وكان العراك الفكريّ حينئذٍ دائراً على نشر كتاب ألف ليلة وليلة في صورته المتبدلة وحُكم المحكمة القضائيه بمصادرة النسخة المستهجنة، فرأيتُ أن يكونَ موضوع محاضرتي عن خطورة الأدب الداعر، فكتبتُ بحثاً موضوعياً، يرصد ظاهرة الأدب المكشوف في التراث العربي منذ ابتدائه في العصر الجاهلي حتى اليوم، وطبيعي أن أعرض أقوال المؤيدين لنشر هذا اللون، وأقوال المعارضين، لأن القضية عميقة الجذور، تعرض لها نفر من الباحثين منذ عهد الجاحظ، وتوالت الكتابة تأييداً وتفنيدياً على مرّ العصور، وحيرةُ الباحث هنا في اختيار ما يقدمه في محاضرة واحدة، لأنّ المادة دسمة حافلة! وإذا كنتُ أنادى بالالتزام الخُلقي فإنّ طبيعة البحث تدعو إلى عرض آراء الجهة المقابلة، وفيها من أعلام الفكر قديماً وحديثاً من يُحسب له حسابه الكبير لآ في دوائر الفن الخالص فحسب، بل في دوائر الدين المتشدّد، لأنّ فريقاً من علماء العصر الحاضر قد أيدَ وجهة النشر، مشيراً إلى أنّ الكتب القديمة يجب أن تُنشر بدون حذف رعايةً لحق المؤلف، فإذا وُجد اعتراضٌ فليكن في الهامش مع الحرص على ماجاء بالأصل مهما انحدر إلى الهاوية! لقد اتسعت المحاضرة للمناقشة الهادفة، وكان من عادة النادي الأدبي أن يفسح مجالَ التعليق لمن يريد، فتقاطرَ المتحدثون ما بين مؤيد ومعارض، وفيهم من خرَجَ عن طبيعة البحث فذكرَ أموراً شاذة لا تُجد موضعها في هذا المكان، ثم عن لي أن أعقب، فوجدتُ الأستاذ عبد الفتاح يقتربُ من أذني لأغضى عما قد يحدثُ

البلبله فى التعليق، مكتفياً بالخلاصة الدقيقة المتركة فى جوهر الموضوع، وهذا ماكنت أريده، وأذكر أن صديقى الإذاعى اللامع الأستاذ فاروق شوشة كان من السامعين، وقد أسعدنى بتعليقه الصائب، كما اتسع المجال لعرض نماذج من شعره المبدع، صادفت ارتياح الجمهور، وقضت على ما تركه النقاش من احتدام.

### نقد هادف:

أتاحت لى زيارةً النادى، أن أقف على مطبوعاته المتعددة، وأن أقرأ مجموعة المحاضرات التى جُمعت فى أجزاء كبيرة بلغت العشرة، فعن لى أن أبدى رأياً فيما قرأت، إذ رأيتُ بعضَ المحاضرات تنحوُ منحنى التخصص الدقيق، فتعرض مصطلحات علمية، ونظريات فنيّة أكثرها موغل فى التعقيد، وجمهورُ النادى - ككل نادٍ أدبى فى الشرق والغرب - جمهورٌ مثقف، لاجمهورٌ متخصص، ومثلُ هذه البحوث الأكاديمية العويصة مجالها القاعات الجامعية فى الكليات المتخصصة، أما أن يأتى الجمهور المثقف، ليستمع فى دائرة خاصة محدودة مالا يهضمه من الآراء التى وفدت إلينا ولم نستقر معها على رأى، فإنه لاشك سيشعر بملل يدعوهُ إلى العزوف عن المحاضرات، لذلك رأيتُ أن أشافه الأستاذ أبو مدين - وهو رئيس النادى - بما دار فى خلدى، مُراعياً حق الجمهور الأدبى فى الاستمتاع والإشباع! وقد استمعَ إلى الأستاذ فى بشاشة تدلّ على رحابة الصدر، وسعة الحلم، ثم قال: إنَّ من الممكن أن تُعلن رأيك فى صحيفة أدبية، ليكونَ موضع نقاش فى مجلس إدارة النادى، فهو الذى يحسم الموضوع على وفق ما يطمئن إليه، ولا أدري لماذا تقاعستُ فلم أفعل، وربما وجدت من آداب الضيافة الكريمة ألا أكونَ مصدر مناقشة ومخالفة، وحسبى أن شافهت صاحبى بما رأيتُ.

### تكريم أديب كبير:

فى زيارتى الأولى لجدّة مضية لزيارة أديب كبير بمكة، له مقامه المشهود فى المجتمع الأدبى، فوجدته فى مرضه الأخير يُعانى آلام الشيخوخة، وخرجتُ باحثاً عمّا عساه أن يرفقه قليلاً عنه، فحدثتُ الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين عمّا أتجه إليه

خاطرى نحو تكريم هذا الرائد الكبير، فأعلن اغتباطه الزائد بقيام نادى جدة الأدبي بهذا الواجب، وتلقيتُ بعد عودتي إلى المنصورة خطاباً منه يدعوني إلى إلقاء محاضرة أدبية عن صاحبي، تُلقى الضوء على آثاره الفكرية، ونشاطه الصحافي، وإبداعه الفني، فسارعتُ بإعداد محاضرة مستوفاة، إذ كنتُ أظن أنى سأقومُ وحدي بملء الفراغ في أمسية حافلة، وذهبتُ إلى النادى فوجدتُ برنامجاً واسعاً يضمُ نفرًا من أصدقاء المحتفل به، وكلهم قد أعدّ كلمة التكريم، وفيهم شعراء هيثوا ما يقولون، ولو كنتُ أعلم أن الاحتفال عام، لحددتُ موضوعي في نقطة خاصة من نقاط المحاضرة أسلّطُ عليها الضوء، فتبلغُ غايتها السريعة بدون ملل، وقلتُ للأستاذ: ماذا أصنع؟ فقال: ستبندئ أولاً، وعليك أن تُوجز، وتخيّرُ فيما أقول وما أدع، ثم رأيتُ أن أقرأ الصفحات الأولى مكتفياً بها، وهذا ما كان، وتابعتُ كلمات التكريم فصادفتُ من نفسى أعظم القبول، لأن أكثر المتحدثين من زملاء الأستاذ، وتلاميذه، وقد أَلَمُوا بكثير مما أجهله، وفيهم من توسّع في الحديث عارضاً شتى الذكريات، مع أن المدة الزمنية قد حُدّدت لكل قائل، ولم يستطع الأستاذ أبو مدين أن يعترض من أفاض، لأنه ذُو جهاد حافل في مضمار الأدب، وليسَ لمثله أن يُجابه بمن يدعوه إلى الإيحاز، وكانتُ أمسيةً مثمرة حقاً، وقد ذهبتُ أشرطة الندوة إلى الأديب الكبير، فاستمع إليها راضياً، ثم شاء الله أن يلقي ربّه بعد أيام، فخرجتُ الصّحفُ نادبةً فضله، معدّةً مآثره، وأكثر ما قيل كان من وحي الندوة الأدبية في نادى جدّة، فكان هذا الاحتفال ذا أثر ملموس، ولولا جهدُ الأستاذ أبو مدين لما نهض على وجهه الحميد.

### تأثر نبيل:

طالعتُ في «معترك الحياة» فصلاً جميلاً كتبه الأستاذ عبد الفتاح تحت عنوان «موقف رائع للفضل بين الربيع»، وفيه يتحدثُ الكاتب عن مكرمة نفسية أسداها الفضل لرجل استغل معرفته بتوقيعه، فكتبَ خطاباً مزوراً إلى وكيل الفضل كي يمنحه ألف دينار، وصادفَ أن حضرَ الفضلُ ساعة التسلم، فقرأ الخطاب المزور، ولح من فزع صاحبه ورعبه ما جعله يعترف بأن الخطاب قد صدرَ منه حقيقة، وله

أن يتسلّم الألف؟ ذكر الأستاذ هذه المكرمة بتفصيل كاشف، ثم قال: «أى قصة هذه؟ إننى حين قرأتها اهتزتُ جوارحى، وكدتُ أبكى لإنسانيتها الرائعة!». .

وتأثّرُ الأستاذ إلى درجة البكاء مما ينبئ عن إحساس رقيق، وليست هذه القصة فريدة فى بابها، فأنأ أعرف لها بعض النظائر، وأخشى أن أدلّ الأستاذ على مراجعها، فأدفعه إلى البكاء من جديد، ولكنى أبادله شعوره الحى، لأنّ المكارم النادرة ترتفعُ بالقارىء إلى أعلى المستويات، وكم يجدر بأساتذة الأخلاق أن يبحثوا عن هذه الفرائد، لتكونَ تطبيقاً واقعياً، لما يقرّرونه من النظريات العلمية، فالمثّل الواقعى برهانٌ لا يكذب، وله من التأثير الجاذب ما يدفعُ بعض النفوس إلى البكاء، وأقولُ بعض النفوس، لأن منها مايفوق الحجارة تصلّباً وصلادة، ولو شاء الله لجعل الناس أمةً واحدة!

وبعد فهل قلتُ كل ما أكّن من ذكريات نحو الأستاذ عبد الفتاح؟ كلاً! فلدى ما ادّخره إلى مناسبة قد تحين!

\*\*\*

## الأستاذ محمود تيمور

مكانة الأستاذ محمود تيمور في عالم القصة لا تتحد، فقد كان ذا جدّ، مثابراً، لا يترك وقتاً مآبداً أن يكتب وأن يقرأ، أو يتصلّ بزملائه الأدباء متحدثاً عن القصة والقصاصين في الشرق والغرب، وله رحلات دائمة إلى الغرب لم تكن رحلات ترف وفراغ، ولكنها كانت رحلات عمل دائم، فهو يرحل ليشاهد وليصور، وليقرأ ويستفيد، وقد يتفرغ شهراً في منزل آمن هناك، ليكتب قصة كان يفكر في أحداثها وأشخاصها طيلة العام، حتى إذا اكتمل نموها في نفسه، حرص على تسجيلها في هدوء وأناة.

وأول ما عرفت الأستاذ الكبير كان عن طريق المراسلة، وأقول المراسلة تجاوزاً، لأنني لم أكتب له بادئ ذي بدء رسالة طويلة، بل كتبت عدة أسطر أطلب فيها أن يتفضل بإرسال كتاب لأبيه المغفور له العلامة الكبير «أحمد تيمور» رحمه الله، حيث أقوم بدراسة موجزة عنه، فسرعان ما كان الكتاب بين يدي، ثم ظهر بحى المتواضع عن العلامة الكبير بمجلة الكتاب سنة ١٩٤٨، فتلقيت رسالة شاكراً من ولده الأستاذ محمود تيمور، يعلن فيها أنه يتابع آثارى في الرسالة والثقافة، وأنه يسعد كل السعادة بلقائى! ولم أتعجل الزيارة لئجل أعرفه في نفسى، إذ كنت لا أزال طالباً بكلية اللغة العربية، وأرى ثقافتى في فنون القصة المعاصرة دون ثقافتى في فنون الشعر، فخشيت أن يتشقق الحديث مع الرائد الكبير بدون أن أستطيع ملاحظته! فرددت عليه شاكرًا مترقبًا ميعاد زيارة قادمة.

ثم رحلت إلى الصعيد، فقابلت أحد وجهاء أبى تيج، وهو الأستاذ محمود

عامر رحمه الله، فشاهدتُ عندهُ مكتبةً كبيرةً زاخرةً بروائع الآثار الأدبية، ومن بينها قصصُ الأستاذ محمود تيمور مهداةٌ إلى الأستاذ محمود عامر، وبواجهة كلِّ قصة إهداءٌ متواضع، فظننتُ أنّ صداقةً حميمةً ربطت بين الرجلين، ولكنّ المهدي إليه ذكر أنه لم يسعد بلقاء الكاتب الكبير، ولكنّه احتاج ذات يوم إلى قصّة «نداء المجهول» بعد أن سمعَ ملخصاً لأحداثها في بعض الإذاعات، ففاجأتهُ غرائبُ كثيرةٍ فيما سمع، وبحثَ عن القصّة في أسيوط فلم يجدّها، ثم كتبَ للأستاذ راجياً أن يتكرم بإرسالها، ففوجئ بطرد يصله عن طريق البريد، ملئٌ بعدة كتب قصصية لتيمور، ومن بينها قصّة نداء المجهول، وعلى كلِّ قصّة إهداءٌ يدل على نبل وفضل، قال الأستاذ: فتحيّرتُ في نبل هذا الرجل، وعزوته إلى عراقه محتده، وكريم حسبه ونسبه!

### في الإسكندرية:

وقد اتفق أن ذهبت إلى مصيف الإسكندرية ذات عام، وكنتُ ذا صداقةٍ حبيبة مع الأستاذ صديق شيبوب المحرر الأدبي بجريدة البصير، فحدثني أن الأستاذ تيمور في الإسكندرية، وليس كعادته القديمة في استقبال أدباء الثغر، ومن قدموا عليه للاصطياف، كما كان من قبل، لأنه لمس تغيّراً من بعض النفوس منذ قيام الثورة، فأكثر الذين انتفعوا بجاهه وماله قد انقلبوا عليه، يهاجمون أدبه، ويعدّونه إقطاعياً مستغلاً، لا يحسنّ بمشاعر الجماهير الكادحة، وقد نشأ مترقفاً لايهتم بغير نفسه، وقد تألم الرجل كثيراً لما يقرأ ويسمع في هذا الاتجاه، وحاول المشاركة في التيار الجديد فأصدر بعض القصص الهادفة بدون أن تجد صدقاً يُذكر، لذلك أثر الانزواء في المصيف إلا عن بعض الخاصة، وسأزوره الليلة مع الأستاذ إبراهيم المصرى، فقلّت للأستاذ شيبوب: أرجو أن تستأذنه في زيارة لى إذا قابلته، فابتسم الرجل وقال: لماذا الاستئذان؟ تعال معنا في المساء.

وفي مجلس الأستاذ طوقني بكثير من كرمه، وقد حدثته عن مقالى عن الده، وكتابته إلى طالباً أن أزوره، فقال في ابتسام: لقد تأخر موعد الزيارة كثيراً، فقلت باسمًا: كنت أهابك ياسيدى، وأخذت أتسلح بالاطلاع الدائب لأصل إلى مستوى

يسمح بمحادثتك، فابتسمَ تيمور ونظر إلى صاحبيه قائلاً: عجيب أن أسمع هذا الآن، وأكثر ما أسمعه من غيره يضايقنى .

فانتهزتُ هذه الكلمة إذ تذكرتُ مقاله الأستاذ شيبوب، وقلتُ فى اندفاع: ياسيدى إن ما يُقال عنك اليوم حسداً وبغياً قد قيل عن أحمد شوقى أمير الشعراء، وموهبة شوقى وريادته فى عالم الشعر، كمرهبتك وريادتك فى عالم القصة، ولم تتأثر مكانة شوقى بما قيل عنه فى مضمار السياسة، وظل شامخ الرأس حتى نُودى به أميراً للشعر، وأنتَ أمير القصة القصيرة بدون نزاع من مناوئيك، فدع الغبار يهبَ لحظات فإنه لن يحجب نور القمر فى السماء! وقد تكرمَ الأستاذ فطلب عنوانى بالفيوم ليرسل إلى بعض نتاجه الجديد، وما ذهبَ إلى القاهرة حتى فعل .

### مع الدكتور جرمانوس:

كنتُ أعرف أن صلة وثيقة قد انعقدت بين محمود تيمور، وصديقى الكبير الأستاذ عبد الكريم جرمانوس، إذ قرأتُ من آثار الرجلين مادلاً على حبّ متبادل، وإعجابٍ مشترك، وقد حضرَ الأستاذ جرمانوس لزيارة القاهرة فى بعض المناسبات الأدبية، فكتبَ إلى كى أنهض للقاءه، وكان مقيماً بفندق سميراميس، وسريعاً ماتوجهتُ إليه على شوق، وقد دار الحديث الأدبى عذباً رائعاً من فم الأستاذ جرمانوس، ثم فوجئتُ بالأستاذ محمود تيمور يقدُ إلى زيارة صديقه محيياً، وقد بدأه بعناق حار، وتكرّم بمعانقتى، وكأنتى صديقه أيضاً، وقدمَ لنا الأستاذ عبد الكريم بطاقتين من سفارة المجر تحملان دعوةً للغداء على مائدة السفير بعد أيام، فى حفل أدبى يقام تكريماً للزائر الكبير، فقلتُ من فورى: إتنى لم أعود احتفالات السفراء، وقد تكونُ لها ضوابط دبلوماسية لا أحذقها، فأرجو أن تقبل عذرى، وسمع الأستاذ تيمور ما قلتُ فقال: تُعجبنى هذه الصراحة الواضحة، وإن كانت المسألة لاتخرجُ عن حساسية مفرطة، وسأعوّضك عن غداء السفارة، بغداء آخر هنا فى فندق سميراميس، مع صديقك جرمانوس! وذلكَ غداً قبل أن أنسى! وأسرعَ جرمانوس فأعلن قبوله وقبولى معاً، ولم يسعنى إلا أن أستجيب!

وقد رأيت أن أشغلَ الأستاذَ تيمورَ بحدثٍ يخصه، فقلت له: إن قصته عن امرئ القيس قد لقيت إعجاباً كبيراً من القراء، ولكنني وازنت بينها وبين قصة الأستاذ محمد فريد أبي حديد عن الملك الضليل، فوجدتُ أبا حديد حريصاً على تجلية امرئ القيس، كما كان، فيما سجله عنه التاريخ، ولكن قصة تيمور قد قذفت به إلى أحاسيس ومشاعر ومواقف لانعلمها عنه! فقال تيمور: أنا أقصد دائماً تجلية المشاعر الإنسانية كما يمكن أن تتفق، ولا يهمني إن كانت قد اتفقت بالفعل لامرئ القيس قدر ما يهمني أن أصور انطباعي الخاص عنه كما أحسّه، وذلك مذهب في القصة يعرفه الدكتور عبد الكريم جرمانوس، فابتسم جرمانوس وقال في لهجة جميلة: أنا عندك أعرف كل شيء دائماً، مع أنني بشر.

### حملة ظالمة:

أصدر الأستاذ حبيب الزحلاوي كتاباً سماه «شيوخ الأدب الحديث» بدأه بهجوم صارخ على أدب الأستاذ تيمور، واستطرد إلى مسائل شخصية لا يتطلبها النقد الأدبي، والأستاذ حبيب قصاص مجدد، ومفكرنا به، ولكنّه في النقد الأدبي يميل إلى التنقص والتحامل، يحثُّ لا يلمح غير الهنات، وهو إذا لمحها أخذ يجوفها تجويفاً يبعدها عن الواقع، وقد استغلّت بعض الصحف حملة الأستاذ حبيب الزحلاوي على أدب تيمور فجعلت تصمُّ الكاتب الرائد بما ليس فيه، وكأنَّ الزحلاوي قد أشعل ثقاباً في برميل من البترول فامتد اللهب إلى أبعد مدى، وكنت أقرأ ما يقال عن تيمور، وأنا في غاية الدهشة، لأن النقد ليس هجاءً وليس تجنياً، ثم إذا اشتطَّ ناقد ما فيجب علينا أن نردّه عن شططه، لا أن نتخذ ما يقال وكأنه حق لامرية فيه.

حملتني قدمي إلى القاهرة، وسارعتُ إلى لقاء الأستاذ تيمور لأعلن له استهجانى لنقد زائف لا يعتمد على الواقع الأدبي الملموس، واستمع الرجل مُنصتاً لكل ما قلت، ثم قال في هدوء: للأستاذ حبيب أن يُبدى رأيه في أدبي كما يشاء، وله أن يعدّه زيفاً لا أصالة به، له أن يقول ذلك ولو لم يُبدِ أدنى دليل، ولكن

ليس له أن يتعرّضَ لحياتي منذ الطفولة، فيتحدّثَ عنها بالكذب الصريح، لقد نشأتُ في رعاية والد يُعتبر من زعماء الإسلام في هذا العصر، وله تقاليدُه الخُلقيّة في التحفظ والاحتشام، ومراعاة الكرامة الإنسانية، قبل أن تكون كرامةً إسلامية بالذات، مع الحدب البالغ على الفقراء ومَن يتطلبون العون القليل أو الكثير، فإذا جاء ناقد ليظهرني فنيا وشابا في صورة تتنافى مع تقاليدنا العريقة، فأنا أبرا إلى الله ممّا قال، ثم إنّي أذكرُ حقيقةً سابقة لامجال للشك فيها، هي أنّ المرحوم الأستاذ سيد قطب قد تعرّضَ لقصصى الأدبيّة بالنقد القاسى على صفحات مجلة الرسالة، فلم أتأثر بما قال، ولم تسقط منزلته لدىّ، لأنه ناقد يتحدّث عن وجهة نظرى: كما تراءت له، وهو لم يتجاوز حديث النقد إلى مسائل تتعلق بالسلوك الشخصىّ، وهو سلوكٌ مفترى على من الزحلاوى، لذلك كنت حريصاً على مودة سيد قطب لأن النقد الموضوعى لا يفسد العلاقة بين الأديب والناقد، وأذكرُ أن الأستاذ صلاح ذهنى قد خالف سيد قطب في اتجاهه، واستمرّ الجدل بين الكاتبين عدة أسابيع، ومع ذلك فقد كنتُ أؤثر للأستاذ صلاح أن يترقّب بسيد قطب، ولكنه واجه إعصاراً بإعصار، أما الذين قد انطلقوا يذيعون تخرصات الزحلاوى فما أعلم فيهم من يستاهل الرد عليه، لأن أكثرهم لا يعصمون بموازين عادلة ترعى الحقوق الأدبيّة، وتحفظ الكرامة الشخصية، وأحمد الله أن الذين احتجوا على كتاب الأستاذ حبيب كثيرين، ولستُ أنا وحدى الذى احترقت بافتراءاته، فقد قال فى الأستاذ توفيق الحكيم، وفى الدكتور بشر فارس، وفى الأستاذ سلامة موسى ما يخالف كثيراً من الحقائق، وجمهرة الناقدين من مُلابسى الحركة الأدبيّة يعرفون الدوافع والنزوات! وقد سمعتُ كل ما قال تيمور موافقاً ومؤيداً لأن النقد شىء والهجاء شىء آخر، ولا أنكر أن للأستاذ الزحلاوى نظرات صائبة، ولكنها ضاعت فيما اصطنعه من الضجيج.

### بعد الوفاة:

أثارَ بعض رجال الصحافة بعد رحيل الأستاذ تيمور لخطأ حول مؤلفاته، إذ نقلَ ما يفيد اشتراك الأستاذ شوقى أمين فى تأليفها، وقد رأيت من واجبى نحو الحقيقة

أن أدلى بما اتضح لى إزاء هذه التهمة، فكتبتُ بمجلة الثقافة مقالاً تحت عنوان «اتهام مسرف» قلت فيه بصدد هذه الأحداث:

«لقد بدأ محمود تيمور إنتاجه الأدبي قبل أن يتصل بالأستاذ شوقي أمين بأكثر من عشر سنوات، إذ بدأ حياته الأدبية بنشر مجموعة «الشيخ جمعة» سنة ١٩٢٤، ثم أصدر مجموعته الثانية «عم متولى» سنة ١٩٢٦، وتلتها مجموعة «الشيخ سيد العبيط» سنة ١٩٢٨م، وكان الكاتب يؤلف للفن لا للكسب، فكان يُهدى مؤلفاته بسخاء لمن يطلب، ولمن لا يطلب، وكان فى أسلوبه مؤاخذات لغوية وأسلوبية لا بد أن يقع فى مثلها من تخرج فى مدرسة الزراعة العليا قبل أن يتم الدراسة بها، ولم يكن والده اللغوى المكين بقادر على أن يميل به نحو الفصاحة الأسرة، لأن نفوذ أخيه محمد تيمور كان أقوى من تأثير والده، وقد لهج النقاد بملاحظوه من ضعف فى عبارات تيمور، فهداه حظه إلى الأستاذ شوقي ليصحح التركيب الإنشائي فى قصصه، فأخذ يراجع مايكتب الفنان، ليصوبه بتسديد العالم المتمكن لغة وتركيباً، ثم امتد الزمن بتيمور قارئاً و كاتباً ودارساً حتى أصبح ذا أسلوب متمكن نعرفه فيما يكتب لأصدقائه من رسائل رصينة، وإذن فقد كان شوقي يُصحح أسلوب الكاتب بدءاً، كما كان يدله بمساعدة أصدقائه على المراجع إذا أراد أن يكتب قصة تاريخية كقصص الحجاج وامرئ القيس وعنترة! وليس فى ذلك ما يؤاخذ عليه تيمور فالدكتور طه حسين نفسه وهو من أعظم الباحثين فى العالم العربى كان يسأل شيوخ اللغة والأدب والتاريخ عن بعض المراجع، فيجيبون بدون أن يكون فى سؤاله عن هذه المراجع ما ينقص قدره العلمى الجهير! وإذن فقد قام نتاج الأستاذ تيمور القصصى على جهده الجاهد، وابتكاره المبدع، ووقفت مهمة الأستاذ شوقي عند تصويب العبارة الأدبية فى فترات معلومة! والأستاذ شوقي عالم أديب، وليس له جهد قصصى ما، فكيف يؤلف قصص تيمور ويعزوها إليه، مع أنه لم يكتب قصة واحدة؟.

هذا بعض ماقلته فى هذا الصدد، وأذكر أنى فى المقال نفسه فندت ما يُقال عن أحمد محرم، وأحمد مخيمر، وصياغتهما أشعار عزيز أباطة، وهى مما ينحو

المنحى التيمورى، بدون تقدير فنّى لأسلوب أباطه ومقارنته فى سماته الفنيّة  
بأسلوب الأحمدين، وكلاهما أيضاً ذو أسلوب منفرد، بحيث لا يشتهه تعبير بتعبير!  
ومؤرخ القصّة العربيّة لن يهتم بأقاويل تُساق بدون تحديد، وقد قرأنا فى  
الدراسات الحديثة عن القصّة المعاصرة ما أكد ريادة تيمور، وحقق سبقه الظافر فى  
دنيا الإبداع القصصى، إذ لا يصح غير الصحيح!

\*\*\*

## فقيه الأزهر والصوفية الشيخ محمود أحمد هاشم

لم تشهد الشرقية مائتاً يغص بالآف المشيعين عن حسرة كاوية، وفجعة كارثة كما شهدت مائت فقيه الإنسانية، ورجل المروءة، وخادم الإسلام، فضيلة العارف بالله الأستاذ محمود أحمد هاشم، فقد ترامت الجموع الغفيرة إلى قريته (بنى عامر) حتى امتلأت الدروب، واكتظت الشوارع، وشرد المتزاحمون إلى الأراضى الزراعية يلتمسون فيها مواضع لأقدامهم، بعد أن ضاقت بهم القرية الحزينة، وما تزاحمت الجموع منقادة وراء داع خارجي يدفعها للمشاركة اضطراراً، كما نشهد فى بعض الجنازات الرسمية التى تُعبأُ الجهودُ ساعات وأياماً لتكون بحشودها المتراسة دليلَ الوفاء، وقد سيق إليها الناس سَوْقاً بشتى المغريات، وأعدت السيارات والقطارات لتجبر من لا يريد التشيع على أن ينهض، لم تتزاحم الجموع فى توديع الراحل النبيل وراء داع خارجي، بل ساقها سائق اللوعة الجارفة، والتقدير الحار لإنسان بذل حياته فى إغاثة الملهوف، وعون السائل، وتضميد الجراح، تقديراً لمسئولية إسلامية يعرفها حق معرفتها مَنْ قَدَّرَ رسالة العالم فى الإسلام تقديراً الصائب، فهو مشعل هداية، وطريق عون ورعاية، وموضع آمال ورغائب، يُنادى فَيُسْمَعُ، ويُدعى فيجيب، وقد لخص السيد محافظ الشرقية مآثر الراحل الكريم فى بيان موجز نشره بالأهرام عقب رحيله ناعياً مؤبناً، فقال صادقاً غير مبالغ:

«إن الفقيه لقى ربه بعد حياة حافلة لخدمة الإسلام والأزهر، فقد تمثلت فيه القيم العليا فى الإيمان بالله، إذ كان مثلاً للكرم والمروءة والوفاء، فتح قلبه

الكبير، وبيته العامر بالمحبة للغريب والقريب، كما أسهم بجهود جلييلة فى خدمة العلم والدعوة الإسلامية، ورعاية مصالح المواطنين، وقد كان قدوة يُحتَدَى بها فى العلاقات الاجتماعية، وفى التعبير عن كرامة العلم والعلماء، فاحتل فى قلوب أبناء الشرقية، ومحبيه من سائر البلاد المكانة السامية، واستطاع بجهوده ومثابرته وإخلاصه وتواضعه أن يعبر أكرم تعبير عن كرامة العلماء، وبلاغة الفصحاء، وشهامة الأوفياء».

وهذا بعض ما يؤدى جانباً من حقيقة هذا الإنسان الكبير، لأن عارفيه وأصدقاءه ومريديه يعرفون من مآثره ما يجب أن يُدَوَّنَ ويذيع، ليكون القدوة الحسنة لرجل العلم والتصوف، قدوة يراها الناس كتاباً حياً عامراً الصفحات بالمآثر، وهو بعد أصدق من كل كتاب يمتلئ بالحكم والمواعظ بدون أن يعطى المثل المشاهد، ويقدم الدليل المتحرك، أى كتاب يستطيع أن يقدم فى مضممار المروءة والهمة والمشاركة الوجدانية ما تقدمه سيرة الأستاذ محمود أحمد هاشم رضى الله عنه، وقد شغل حياته بنفع قاصديه، وكان فى طوقه أن يصبح من أصحاب الثروات لو منع يده عن البذل الدافق، والعطاء المدرار، فإذا أعوزه المال فى بعض مواقف المروءة استدان واقترض لياسو جراح محتاج، ويمسح دمعة مسكين.

لقد خصص الفقيد يوم الجمعة للقاء كل وافد يؤم ساحته العامرة، فما تحين الساعة التاسعة حتى يجلس مجلسه بين أتباعه ومريديه، وتنظر فتجد عشرات الراجين فى انتظاره، فصاحب المطلب النقدي يجد الإسعاف لوقته بدون انتظار، وفد تأهب الشيخ للموقف، فأحضر معه من المال ما يظن به سداداً من عوز، وإشباعاً من جوع، وبرءاً من فاقة، ويعجب زائره المتابع لمواقف الشيخ أسبوعاً بعد أسبوع، كيف يجد من أبواب المال ما يعينه على مروءات تتوالى وتتتابع، أما أصحاب المآرب الأخرى فما أكثر، وما أغزر، هذا فقير يطلب التعيين فى عمل حكومى، وهذا مريض يريد الالتحاق بمستشفى مجانى، وهذا طالب يتلمس موضعاً فى المدينة الجامعية إذ عز عليه أن يعيش فى منزل مستقل بدون مورد، وهذا متهم ينشد محامياً يترافع عنه، وليس فى طوقه أن يدفع المال، وهذا وفد من

قرية يسأل المعونة فى بناء مسجد، أو إنشاء مدرسة، أو ترميم مستشفى، وهذه أرملة ستعقد قران ابنتها ويشرفها أن يتولى الشيخ كتابة العقد لتسمو به بين الناس، حين عدت الأب والعم، وهذا موظف أرهقه رئيسه، ودفعه إلى تحقيق قضائى لهفوة هفاها بدون قصد، ويطلب من الأستاذ أن يزيل ما بنفس الرئيس! كل هذه الحاجات وأكثر منها تعرض أمام الشيخ الرحيم فى مجلسه وهو يفحصها حالة حالة ليحدد لكل طالب ساعة من يوم فى الأسبوع القادم يلقاه فيها بإدارة الأزهر بالزقازيق لينهض معه حيث يريد، وقد ألفت الزقازيق أن ترى الشيخ على رأس وفد من طالبى الحاجات يتقدمهم إلى المصالح الحكومية رائجاً غادياً، وقد يكون مريضاً يعانى من خبيث الداء مالا طاقة له به، ولكنه يستجيب إلى هواتف الأريحية، ودواعى المروءة فينهض متحاملاً على نفسه، سائلاً الله العون، ولا بد من يوم أو يومين فى الأسبوع للقاهرة كى يقضى مصالح من تتم مسائلهم فى العاصمة الكبرى، ثم عليه أن يزور فى المساء من دَعَوه إلى قراهم فى شتى المناسبات الاجتماعية بدون أن يكسر خاطر امرأة ضعيفة أرادت أن تتباهى بمقدمه، كما عليه أن يمد يده بالعطاء لتلك التى دعتة عن قصد لتسعد بوجوده الشخصى وخيره المادى، وهكذا يعود الرجل إلى منزله بعد طواف متواصل، وقد يكون الرجوع فى منتصف الليل مرهقاً مكثوداً متعباً، لا يقدر على الكلام، وعليه أن يستيقظ فى الفجر ليؤم أهله فى الصلاة، ويعد واجبات عمله الإدارى العلمى بالأزهر، فإذا خرج من عتبة داره، وجد عشرات السائلين فى انتظاره، ونحن فى مصر وفى غيرها من البلدان النامية لانرحم رجلاً من رجال الخير حين نلح عليه بما يرهق، لأن ندرة هذا المعدن النفيس تجعل الإقبال عليه فى تحقيق المآرب، وإجابة المطالب ضرورة لا بد منها! وكم يتحمل صاحب المروءة فى بلد قلت فيه المروءات، إذ يكون هدفاً لمشاق لاتنقطع ولا تبيد.

أجل، يجلس الأستاذ فى مجلسه الأسبوعى يوم الجمعة ناظراً فى شئون الناس، حتى يحين موعد الصلاة، فينتقل إلى مسجده الكبير وقد زخر بجموع المصلين، فتؤدى الصلاة وتسمع الخطبة فى خشوع، ثم تقام حلقة الذكر مدوية

بالصلوات، رنانة بالتسايج، فإذا فرغ الذاكرون جلسوا يستمعون إلى آيات من كتاب الله في هيبة وخشوع، وعيونهم للأستاذ متطلعة وامقة، ولا تشبع من رؤية وجهه السمع، ومشهده المهيب، ثم ينهض المصلون جميعاً إلى الغداء مهما كثف العدد! فتجدد الموائد كلها بدون انقطاع يلتقى عليها أكثر من مائتى طاعم! يتوالى ذلك وكأنه شيء هين لا يكلف شيئاً!! لو كنت سمعت ما رأيت - والله - ماصدقت، ولكنى أرى وأشهد وأطعم، وليس الخبر كالعيان!

أذكر أن الكاتب الأستاذ محمد كرد على نشر بحثاً في كتابه «أقولنا وأفعالنا» يقول فيه: إنَّ الكرمَ المفرط ليس ممدوحاً، وإنَّ الجُودَ السخى من أخلاق البادية، ولا محل له الآن، لأنه يُودى بالبيوت ويدكها دكا، ولا يوجب شرع أو عقل، ذكر الأستاذ محمد كرد على في كتابه هذا الرأي، فوقفت عنده طويلاً، وكتبت تعقيباً عليه بالجزء الرابع من كتابي «النهضة الإسلامية ص ١١٢» أقول: ملما ببعض مآثر الأستاذ محمود هاشم:

إن قول الأستاذ محمد كرد على يتجاهل أن وجود الكرماء ضرورة محتومة ليصونوا وجوه المحتاجين، وإذا قلَّتْ مظاهر الكرم اليوم، فليس المراد أنه انقطع عن الناس نهائياً، فأنا أعرف في هذه الشدة التي تأخذ بأكظام الناس رجالاً يبذلون عن سعة لاتعرف الضيق، وليسوا من ذوى اليسار المفرط الذى يدعوهم إلى الاتساع الممتد بدون حرج، فهم قوم مستورون أووا إلى كرم الله ورحمته فأمدهم بالنفس الخيرة، وسهل لهم سبل الكرم، وقد يكون من باب الاعتراف بالحق أن أذكر من بين هؤلاء أخى البر العارف بالله الأستاذ محمود هاشم، إذ أن جميع المصلين يوم الجمعة بمسجده فى قرية «بنى عامر» لا بد أن يتناولوا طعام الغداء لديه، وقد يتجاوزون المائة والمائتين، فتسع لهم المآدب الحافلة دون ضيق، وهذا ما أعجب له، وأراه لغرابته الزائدة فوق التعليل.

هذا ما قلته من قبل، وأنا أكرره لأؤكد أن تسجيل المآثر الإنسانية فى الصحف والكتب، يدعو إلى احتدائها وتقديرها، وفى كتب التراث روائع خارقة للأجواد

من الأسخياء، فلماذا لانسجل فى كتبنا المعاصرة أمثال هذه الروائع كيلا يظن ظان أن الإنسانية فقدت أمثلتها الصادقة فى عصر المادة الذى سيطرت فيه الأناية والأثرة، وكادت تمحى المروءة والأريحية! لولا أن ذرارى حاتم طيى، ومعن بن زائدة، وأبى دلف العجلى، وعبد الله بن جعفر لايزالون يتناسلون، ولن أسكت عن بعض ما فى نفسى جبناً من قوم يولعون بتكذيب الأحاديث إذا اتصلت بكرامات الملهمين، ويعدون ما يذكر فى هذا النطاق حديث خرافة، وهو أمر واقع نلمسه باليد، فقد شوهذ الأستاذ يحادث من يفد إليه من المرضى حديث المشجع المستبشر، فيدعوهم إلى الصبر، ويعدهم بالشفاء، لأن رحمة الله قريب من المحسنين، ثم يقرأ الفاتحة داعياً آملاً، ويرجع المريض من ساحته وقد هدأت نفسه، وانفرج باب الأمل لعينه فترتفع روحه المعنوية ويتعاطى الدواء فى ثقة وبشر، ويجد من القوة ما يساعده على تحمل الصعاب، ويكون من أثر ذلك كله أن يأذن الله بالشفاء فى كثير من الحالات! فكان لقاء الشيخ قوة دافعة، وحافزاً موجهاً، وبه اعتصم المريض بالصبر مكاناً حتى بلغ ساحل الشفاء! وهذا بعض ما رأيناه عن مشاهدة، وما شهدنا إلا بما علمنا، فليهبأ من يهبأ بما نقول إن أراد، ولكن عليه ألا ينسى أن ارتفاع الروح المعنوية للمريض سلم للشفاء، ودواء ناجح يسعف بالعلاج.

لقد زاملتُ الشيخ محمود هاشم ابتداء من عهد الطلب بمعهد الزقازيق، فكان منذ نشأته الغضة كريم النفس، مبتسم الثغر، يدعو زملاءه يومى الخميس والجمعة إلى قريته، فيشملهم والده الكبير مولانا الشيخ أحمد هاشم رضى الله عنه بكرمه الغامر، فهو يوقظهم فى الفجر لأداء الصلاة، ثم يدير عليهم أكواب اللبن الواسعة بيده، فيخدمهم بنفسه وهو سيد، ولايزال يرعاهم ويخصهم بما لديه من المآكل والفواكه متسائلاً عن أحوالهم، وقد ورث الابن عن أبيه هذه المزايا، فمماً أعرفه أن أحد الطلاب لم يستطع أن يكمل التعليم بالقاهرة لضيق ذات اليد، وأثر الاكتفاء بالشهادة الثانوية، فعز ذلك على الشيخ محمود، وألح على زميله إلحاحاً متواصل كى يسافر معه ويسكننا فى منزل واحد ليتولى هو عنه ما يلزم من

النفقات، وهكذا وفتى محمود بعهدہ لصاحبه، فتخرجنا معاً فى كلية الشريعة الإسلامية بعد الانتهاء من سنواتها الأربع، ثم عيّن الأستاذ محمود هاشم مدرساً بالمعاهد فكان يختص الطلبة باهتمام غير عادى، يتساءل عن أحوالهم المعيشية، ويقدم للمحتاج ما يريد من النفقات والكتب عن سماحة لاتعرف الحدود، وإذا توسم صفاء الروح فى بعض الطلاب، قدم إليه كتب التصوف وحثه على العبادة والخشية، ودفعه إلى الجد فى المذاكرة ليكون فيما بعد عالماً عاملاً يجمع بين العبادة والعلم، فيعطى المثل الحى لرجل التصوف الصحيح!

ولا أجد أفصح رحابة من صدر الراحل الكبير، فقد طُبع على أن يتبهج عند الإساءة المقصودة كاظماً غيظه، إذا يمر باللغو مر الكرام، كنا فى مجلس يعمر بالتسيب والذکر، فشد زميل متسرع، وانطلق يسب الذاكرين ويقول إنهم أعباء على المجتمع، وتهور الزميل اللجوج ففدح فى كبار الصوفية من أمثال الغزالي، وابن عطاء، وابن الفارض، فسكت الشيخ محمود طويلاً، فلما لم يجد صاحبنا رداً يتيح له أن يشقق الحديث، تخاذل وأقبل يسأل الشيخ محموداً عن رأيه فيمن ذكر من الصوفيين، فقال محمود فى تواضع: أنا أقلُّ من أن أفِيَهُمْ حَقَّهُمْ من التقدير، وإنك لاتهدى من أحببت! فشرذ الزميل قائلاً: وهل نسيت خرافات الشعرانى؟ فابتسم الشيخ وقال: إنى أولف عنه كتاباً، وسأهديه إليك عند طبعه، ومع عزوف الشيخ عن التأليف إلا فيما ندر، حيث تتنَاهَبُ أوقاته شواغل الناس، فقد صمم على أن يكتب عن الشعرانى، كتابة من يتكلم عن التصوف الصادق فى سيرة بعض أقطابه! فأخذ يتحدث عن الارتباط بالشريعة، والقيام بفرائض الله ومسئوليات العبادة ليكون العمل بالشريعة سلماً للحقيقة! مؤكداً أن التصوف سعى فى الأرض، وخدمة للناس، وكدح للرزق، وليس اتكالا وانعزالاً، وقد جاء الشعرانى فى كتابه صورة صحيحة لإمام متصوف مكتمل، تمثلت فيه خصائص الزعامة الروحية والقُدوة الشعبية، إذ أعطى الحياة مثلاً للمتصوف العامل الذى يشارك إيجابياً فى ازدهار الحياة، ونفع الناس بدون أن يلجأ إلى الانزواء، كما كتب فصلاً ممتعاً تحت عنوان «رسالة الشعرانى» جعله تفسيراً واقعياً لقول

الشعرانى: «حاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف، وعقائد أهل الفكر حسب طاقتى» وأهل الكشف هم المتصوفة، وأهل الفكر عندهم هم الفقهاء.

وللفقيد مقالات سهلة نشرها تباعاً بمجلة منبر الإسلام، وهى تخاطب الوجدان بنفحات من قصص القرآن وتحليل لبعض الآثار النبوية، تعتمد كاتبها أن يصل بها إلى قلوب العامة بدون إرهاق بكده عقلى، أو تخريج فلسفى، كما أن له أشعاراً تنحو هذا المنحى الدمث جمع بعضها فى ديوان سماه «الهاشميات» وكتب مقدمته الإمام الأكبر عبد الحليم محمود رحمه الله، وما قاله فى ديوانه من الشعر شبيه بما يقوله مولانا الشيخ على عقل ومولانا الشيخ صالح الجعفرى ممن يرتجلون الشعر فى مجالس الذكر على إيقاع النغم، وأستاذهم السباق فى هذا المجال هو العارف بالله عبد الرحيم البرعى! ولهؤلاء المتصوفة مشاعر رقيقة تتأثر بالشعر الواضح تأثراً تجرى به الدموع، لقد أنشدتُ الشيخ صالح الجعفرى ذات مرة قول الشاعر:

فيا نجد لو كان النوى منك مرة صبرنا ولكن النوى منك دائم

فردده باكيًا، وصادف أن أنشدته الشيخ محمود هاشم فطرب وتواجد، وأوصى أن أجمع له ما ينحو نحوه من هذه «النفحات» كما سماها، والتعبير بالنفحات له رمزه الدال، وفحواه الدقيق.

إن مشيئة الله فوق كل مشيئة، وقد اصطفى محموداً إلى جواره بعد مرض ضاعف من حسناته ومحا من سيئاته، وإذا كانت ألسنة الخلق أعلام الحق فإن ما شوهد من حسرة الآلاف على رحيله، وما سمع من بكاء عارفيه، وتفجعهم على فقدته ينطق بما كان له من مكانة قد احتلها بسلوكه الممتاز، وسعيه الحميد، فهؤلاء الريفيون الذين بكوا حول نعشه يذكرون زيارته المتصلة للقبرى، وقيامه بالصلح بين الأسر المتنازعة حين يستفحل الشر، وتطول جلسات المحاكم فى ساحات القضاء بدون جدوى! وإذ ذاك يحضر الأستاذ فى ملاً من صحابته، ويجلس بين المتنازعين مستمعاً إلى كل فريق، ثم يقرأ فاتحة الكتاب، ويشير بما يرأب الصدع،

ويجمع الشمل، فإذا نشز فريق ترضاه الشيخ بابتسامته ودعائه بالرحمة والخير، فيتحول النشوز إلى طاعة وقبول، ويعود الرجل الكبير وقد عصم دماء كادت تُراق، وبقلبه فرحة مبهجة أن أطفأ النار، وحال دون اندلاع الحريق. هذا بعض جهاده، فلم لا يأسف المحزون تلهفًا على فقدته، ولعل مما يهدئ من شجونهم أنه انتقل إلى جوار ربِّ كريم، أخبر عباده بأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ولن يضيع أجر المحسنين.

\*\*\*